

عبد الحميد الكاتب

عصره:

كان عصر عبد الحميد عصر الإقبال والإدبار في الدولة الأموية. بلغ الأمويون قمة مجدهم في عهد الوليد بن عبد الملك، وتم نقل الدواوين إلى اللسان العربي في الأقطار، فتجلت الدولة عربية في عامة مظاهرها، واتسعت الفتوح في الشرق والغرب، وكانت الأندلس من جملة ما فُتح؛ فأنشأ بنو أمية في الجنوب الغربي من أوروبا مملكة عظيمة، وبدءوا بنشر العربية بين البربر وشعوب إسبانيا، وأقام الوليد المصانع العادية في الحجاز والشام وما إليهما، تخلد مجد الدولة العربية، وتخرج المسلمين في بيوت عبادتهم من سداجة البداوة إلى نيقه^(١) الحضارة، وكثرت في كل بلد المرافق العامة، وكان ينفق أكثر ما يفضل من جباية الدولة على استحداث المساجد ودور المرضى والترع والجسور والطرق.

وفي هذا العصر استخلف سليمان بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز، فدُعي سليمان مفتاح الخير لرفعه المظالم، وردّه المسيرين^(٢) وإخراجه المسجنين، وسار ابن عبد العزيز في الخلافة بسيرة العمرين أبي بكر وعمر، فأغتنى الناس في عهده القصير، حتى لم يبق في أكثر الولايات من يأخذ الصدقة، وأبطل الحروب والغزوات، مجتزئاً بما فتحته العرب من البلاد، وحبب بحسن سيرته الإسلام إلى

(١) تنيق في مطعمه وملبسه: تجود وبالغ كتنوق، والاسم التنيقة.

(٢) سيره من بلده: أخرجه ونفاه.

الشعوب، فدخل الناس فيه أفواجًا، في بلاد الهند والترك والخزر والبربر والقبط، وكانت صلواته بالروم على أحسن ما تكون عليه صلوات دولتين متجاورتين.

وجاء هشام بن عبد الملك يحيي سنة أجداده في حسن التدبير والسياسة، ويضع للأموال نظامًا لا غبن فيه على الراعي ولا على الرعية، واستخذت^(١) الروم في أيامه فأسر ملكها، وكان موفقًا في أعماله، عدَّ عهده آخر أيام السعادة في بني أمية، فلم يهتوا بعده بالملك، ولا هتت بهم الرعية، لانتشار الخلاف على الخلافة بين بني مروان، واضطراب المملكة بتقاتل أبناء العم، واشتداد المهاراة بين أولياء العهد؛ إذ كان من العادة أن يولي الخليفة عهده من بعده اثنين غالبًا، وبدت العداوة بين اليمانيين والمضريين، فكان فساد الجيش، وتنازع آل البيت الممالك، مؤذنين بذهاب الملك.

وفي هذا العصر كثرت هجرة العرب إلى البلاد التي أظلتها الراية الأموية، كفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس، وعاونتهم الدولة بإقطاعهم الأرضين الشاغرة، وجعلت في بعض الأقطار جزية أهل الذمة طُعمة^(٢) للمهاجرين، ترغيبًا لمن وراءهم للالتحاق بهم، فبدأ النقص في سكان جزيرة العرب، وذُكرت الغوائل بين قيس ويمن بما كان من الطوائل^(٣) في الجاهلية، ورجعت العرب بالعصبيات إلى عادات لهم حظرها الإسلام، فأدى ذلك بالملة والدولة إلى أسوأ مصير.

وفي هذه الحقبة جرى تدوين العلوم، ولا سيما الحديث، دُونَ بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد حاذر ضياع السنة بانقضاء عصر الصحابة والتابعين، وكثر

(١) استخذى: خضع وذل.

(٢) الطعمة: الرزق.

(٣) الطائلة: العداوة، والجمع الطوائل، وهي الذحول والأوتار.

تدوين اللغة والشعر، وتعلقت همة عالم قريش وحكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي بنقل كتب الطب والكيمياء والنجوم والحرب والآلات إلى العربية، وأعطى التراجم والفلاسفة، وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الإسلام. ثم تُرجم كتاب في الطب وبدأ الأفراد بعد ذلك ينقلون من الفارسية والسريانية شيئاً من كتب السياسة والحكمة، يهدونها للخلفاء والأمراء من بني أمية.

وفي هذا الدور قوي أمر القدرية أو المعتزلة، وكانوا ظهوروا بظهور الخوارج والشيعة، لما أنكر الخوارج على علي التحكيم في الخلافة يوم صفين، وحكموا بكفر الفاسق، حكمهم بكفر من يسعى في سفك دماء المسلمين لمأرب دنيوي، وأخذ قوم يدعون المتساهل في دينه فاسقاً، ويجعلونه من المسلمين، وصرح بعضهم بأن الأمور كانت مقدرة عليه؛ وهبت خلال ذلك فرقة جاهرت بأن الإنسان مختار في أعماله، وأن الله لو أجبر الإنسان على عمله لم يؤاخذه عليه، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام: مؤمن وكافر وفاسق، ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن، واعتزلوا مجلس الحسن البصري فسموا المعتزلة، وهم الذين أحدثوا علم الكلام، وتابعهم في التأليف أناس ليسوا على مذهبهم، وهم الذين وسعوا بعد أصول الفقه، وأكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم.

وأراد عمر بن عبد العزيز أن يستتبع القدرية، أو يخرجوا من بلاده، واشتد بعض آله في إرهابهم، لكن بعض الخلفاء من أخلافه ذهبوا بعد حين مذهب القدر، ومنهم مروان بن محمد الذي كتب له عبد الحميد الكاتب وعُرف به.

أصله وخلقه:

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري من عامر بن لؤي. ولؤي ينتهي إليه شرف قريش، ومن ولده عامر بن لؤي وولده حسل ومعيص. وقد قيل في نسبه: إنه عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب. ومعظم الروايات ترجح أن والده كان من الموالي. وإذا صح ذلك كان من أصل غير عربي، اللهم إلا إذا ثبتت سلسلة نسبه التي انتهت بابن عامر بن لؤي بن غالب. وفي رواية أن جده من سبي القادسية. وإذا صحت نسبه إلى أصل فارسي فيكون جده انضم إلى عامر بن لؤي؛ وقد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالخلف والموالة فيتسبب إليها. والاصطخري يقول: إن عبد الحميد كان ممن يصلح من الفرس للدواوين من الكُتّاب والعمال والأدباء، وكان له في بني أمية ولاء ينسب إليهم؛ فنسبته إلى عامر نسبة ولاء إذاً.

والمولى عند العرب، دون الحر الصريح، وفوق العبد الرقيق في المرتبة؛ والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العم، يجب على صاحبه أن ينصره ويرثه إذا مات ولا وارث له، ومنه حديث الزكاة: «مولى القوم منهم». والمولى هو الصاحب والقريب والجار والحليف والجمع موالٍ، ويكون المولى مولى عتاقة ومولى تَبَاعَة؛ فمولى العتاقة هو الذي يكون عبدًا أو أسيرًا فيعتقه صاحبه فيصبح المعتق للمعتق مولى؛ ومولى التباعة هو من يُصطنع أو يُخالف أي يستتبع. ومن الواء أيضًا مولى الرحم وهو من يتزوج في قبيل فينسب إلى قبيلهم. ودية المولى نصف دية الحر، وكذلك حكمه في العقوبات يناله منها نصف ما ينال الحر؛ أما في الموارث فمولى العتاقة يورث مولاه ولا يرث منه، ومولى التباعة لا يرث ولا يورث، وحكم مولى الرحم كحكم الأحرار يرث ويورث.

كان الموالي في الجاهلية من أجناس ونحل مختلفة، فلما كان الإسلام أصبح غير المسلمين ذمة؛ وجعلوا في الجاهلية دية المولى، وهو الخليف، خمسًا من الإبل، ودية الصريح عشرًا. والصريح الخالص النسب، والخليف عند العرب مولى؛ والولاء بفتح الواو: القرابة، وبالكسر: ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في ملكه، أو بسبب عقد الموالاتة. إذا عرفت هذا فليس أمامك ما يمنع من جعل عبد الحميد من أصل عربي، وإن كان جده مولى تباعة لا مولى عتاقة، كأن يكون قد تزوج من بني عامر وانضم إليهم بسبب. هذا على شريطة ضعف الرواية القائلة بأن أجداده من سبي القادسية، وهناك تكون الفارسية أعلق بيته من شعرات قصّه^(١).

وكان بنو أمية كثيرًا ما يعتمدون على الموالي في كتابتهم ودواوينهم، فلم تمنعهم أصولهم من تولي أهم مناصب الدولة؛ فقد كان من كتّاب معاوية مولاة عبد الرحمن بن درّاج، وكان على ديوان الرسائل لعبد الملك بن مروان أبو الزعيزعة مولاة، وكتب للوليد على ديوان الخاتم شعيب النعماني مولاة، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاة، وعلى المستغلات نُفيع بن ذؤيب مولاة؛ وكان يكتب لمسلمة سميع مولاة، وعلى ديوان الرسائل الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان، وعلى ديوان الخاتم المولى نُعيم بن سلامة؛ وكان يكتب لعمر بن عبد العزيز الليث بن أبي فروة مولى أم الحكم بنت أبي سفيان، وكتب له إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير، وكتب للوليد بن يزيد سالم مولى سعيد بن عبد الملك، وكان عمرو بن الحارث مولى بني جُمح يتولى ليزيد بن الوليد الناقص ديوان الخاتم، وكان من الموالي على ديوان الرسائل لمرwan بن محمد، عثمان بن قيس مولى خالد القسري.

(١) القصص والقصص (بفتح قافيهما): الصدر أو رأسه أو وسطه أو عظمه، وفي المثل: هو ألزم لك من شعرات قصك.

ولقد ساد الموالي منذ الصدر الأول فما تولوا الكتابة للخلفاء والأمراء فقط، بل تعدوا ذلك إلى الرواية والعلم، وصار الفقه في معظم البلدان إليهم، حتى إن عبد الملك بن مروان سأل الزهري عمن يسود الناس، فلما ذكر له طائفة من الموالي في البلاد قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا؛ فلما ذكر له النخعي، وكان من العرب. قال عبد الملك: ويلك يا زهري فرجت عني! والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. فقال الزهري: يا أمير المؤمنين، إنها هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط.

إن ما اتصل بنا من أخبار عبد الحميد لم يصور لنا منه صورة تامة، فما عرفنا مولده، ولا البلد الذي ولد فيه من بلاد الشام، ولا نوع دراسته وأساتذته؛ ولكننا عرفنا أنه شامي عاصر بعض الخلفاء من الأمويين، وقيل: إنه من أهل الأنبار وسكن الرقة؛ فإن صححت هذه الرواية كان عراقياً غير شامي. وأطلق عليه ابن عبد ربه اسم عبد الحميد الأكبر، وعده ممن نبئ بالكتابة، وكان قبل خاملاً، وقال: إنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزید، ثم لم يزل كاتباً للخلفاء بني أمية حتى انقضت دولتهم، وفي هذا القول نظر؛ لأن عبد الملك تولى سنة خمس وستين، وتوفي سنة ست وثمانين، فلا تكون سن عبد الحميد يوم مقتله أقل من سبعين أو خمس وسبعين، وهذا يناقض ما سيمر بك من أنه عُمر عليه سنة ١٣٢ وهو عند ابن المقفع، ولم يعرف الموكلون بالقبض عليه أيها عبد الحميد، وابن المقفع إذ ذاك كان في الكهولة، فلا يعقل إلا أن يكون صاحب الشرطة العباسي عارفاً على الأقل بأن صاحبه شيخ هرم؛ ويميل إلى أن عبد الحميد كتب أولاً لهشام بن عبد الملك الذي ولي سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥ ثم مروان.

والأرجح أن عبد الحميد تخرج في الكتابة بسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، ويقال: مولى المنذر بن عبد الملك، وقيل: سالم مولى سعيد بن عبد الملك، وكتب للوليد بن يزيد، ثم كتب له ابنه عبد الله بن سالم. وكان سالم ختن عبد الحميد؛ أي صهره زوج أخته، وهو أحد الفصحاء البلغاء، وقد نقل رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر، وتُقل له وأصلح هو، ولسالم رسائل مجموعة في نحو مائة ورقة، وبهذا يقال: إن عبد الحميد أخذ عن رجل بليغ يعرف الاستخراج من أدب اليونان وسياستهم، ولم يثبت أنه كان يعرف اليونانية كما وهم بعض أساتذة العصر، وربما شدا شيئاً من الأرمنية مدة مقامه في إرمينية كاتباً لمروان. ويقول ابن هلال العسكري: إن عبد الحميد كان يحسن الفارسية ويأدب هذه اللغة تأدب، وعلى منوال حكمائها نسج، وألّف تطويل الرسائل واختصارها بحسب الحال. فمن الرومية أخذ بالواسطة، ومن الفارسية أخذ مباشرة، والفارسية ما كانت تقلُّ حكمة أهلها عن حكمة يونان.

ساعد عبد الحميد أدبه الفارسي على نبوغه في البلاغة العربية، ويقول عبد القاهر: إن من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو يتّين في تلك اللغة، كامل الأداة، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، متته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها.

كتب عبد الحميد قليلاً عن هشام بن عبد الملك كما عرف من رسالة كتبها عن هشام إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن، وقد كان على اليمن منذ سنة ١٠٧؛ أي أن ديوان هشام كان المدرسة الأولى التي تخرج بأساتذتها عبد الحميد في علوم الإنشاء، ويمكن أن يقال: إنه كان من أول نشأته على اتصال مع من يعرف الخلفاء،

وما يقتضي لخدمة الحكومات من الأدوات، وذكروا أنه حدث عن سالم بن هشام، ولعله سالم مولى هشام، وحدث عنه خالد بن برمك. وقالوا: إن عبد الحميد كان في حدائته معلمًا في الكوفة، ولعله مرن على حفظ مسائل كثيرة من تأديبه الأطفال زمانًا؛ والمؤدبون كانوا طبقة راقية في القرون الأولى للإسلام. وكانت الكوفة لما ألقى بها عصا الترحال لأول أمره محط رحال رجال العلم في الدين واللغة والنحو والتصريف، ولا شك أنه ثافن أهل البلاغة فيها وأخذ عنهم، وهناك حدث له غرام بتمثل كلام علي بن أبي طالب. فقد سئل: ما الذي خرَّجك في البلاغة؟ فقال: حفظ كلام الأصلع، يعني عليًا، وكانت الكوفة من البلدان التي أحبها أمير المؤمنين وأحب أهلها وأحبوه.

وفي زمن لم نثبته جيدًا اتصل بمروان بن محمد وهو والٍ على إرمينية يجارب الخارج فيها على الخلافة، فكتب عنه، وحظي عنده، وانقطع إليه، ولما عقدت البيعة لمروان في الشام سجد مروان وأصحابه شكرًا لله، إلا عبد الحميد، فقال له مروان: لم لا سجدت؟ فقال: ولم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنًا؛ يعني بالخلافة؟ فقال: إذا تطير معي، فقال: الآن طاب السجود وسجد. وكتب لمروان طول خلافته.

ثرى هل يكون الاختلاف في نسب عبد الحميد سببًا يدعوننا إلى أن نرجح أن أجداده كانوا من سبي القادسية؟ وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فإنه تأثر لا محالة بعادات الفرس وعرف أساليبهم في الكتاب والخطاب. وعلى كل فإن المجال الذي جال في عقل عبد الحميد كان فسيحًا بالنسبة لعصره وأهل طبقته، وكان من اتصل بهم قبل أن يلي الكتابة عن الخليفة جماعة من المنظور إليهم في الأمة، ولهذا ولغيره؛ أي لمولده في الشام وتنقله في البلاد، دخل كبير في اتساع عقله وتجاربه.

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يحب عبد الحميد حباً جمًّا، ويرفع منزلته بين الكُتَّاب والعمال «ولا يرى الدنيا إلا به» لعلمه بنبوغه وتفرده في صناعته، وذهابه بفضل البلاغة وما ينبغي لها، حتى عرض عليه -لما أيقن أن أمره أدبر، وهزائمه تواترت، وسلطانه صائر إلى الزوال- أن يكون مع أعدائه لتسلم حياته، قائلاً: إنا نجد في الكتب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة، وسيضطر إليك هؤلاء القوم -يعني ولد العباس- لأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك، فاستأمن إليهم، وأظهر الغدر بي، فلعلك تنفعي في حياتي أو بعد مماتي، فقال له: وكيف لي بأن يعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك، وكلهم يقول: إني غدرت بك، وصرت إلى عدوك؟ وأنشد:

وذنبني ظاهراً لا شك فيه لمبصره وعذري بالمغيب

وأنشد أيضاً:

أسيراً وفاءً ثم أظهر غدره فمن لي بعذري يوسع الناس ظاهره

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك، وأقبحهما بي، ولكنني أصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. وهكذا تجلّت في عبد الحميد فضيلة الوفاء، فأثر أن يُقتل مع صاحبه، على أن يتخلى عنه يوم الكريهة والشدة، وتجلت فيه خلة الشجاعة والاعتقاد بالأقدار؛ فهو الرجل الذي شارك سيده في سعادته وبلائه.

قيل: لما زال أمر مروان أتى المنصور بخواص مروان، وفيهم عبد الحميد والبلعكي المؤذن وسلام الحادي، فهممّ بقتلهم جميعاً فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك؟ قال: تعمد إلى إبل فتظمتها ثلاثة أيام ثم توردها الماء، فإذا بدأت تشرب رفعتُ صوتي بالحداء، فترفع رؤوسها

وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك، فكان الأمر كما قال، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه. وقال له البعلبكي: استبقني يا أمير المؤمنين فأني مؤذن منقطع القرين. قال: وما بلغ من أذائك؟ قال: تأمر جارية فتقدم إليك طستًا، وتأخذ بيدها إبريقًا، وتصب الماء على يدك، فأبتدئ بالأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني، حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم. فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك، وأخذ البعلبكي في الأذان، فكانت حالها كما وصف. وقال عبد الحميد: يا أمير المؤمنين، إني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة. فقال: ما أعرفني بك؟! أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل، وعملت لنا الدواهي؛ وأمر به فقطعت يده ورجلاه وضرب عنقه ويروى أنه سلمه إلى عبد الجبار فكان يحمي له طستًا ويضعه على بطنه حتى قتله.

ويقول اليعقوبي: إن عبد الحميد تخلف بمصر واستتر حتى دُلَّ عايه صالح بن علي. وزاد غيره: إنه لما انهزم اختبأ في كنيسة في بوسير من أرض مصر. وقال آخرون: إنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمز عليه - وكان صديقه - وفاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفًا على صاحبه، وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا، فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم، وليمض البعض الآخر إلى من وجَّهكم، فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذوا عبد الحميد. وفي رواية: أن عبد الحميد لم يختبئ في الجزيرة عند ابن المقفع، بل قبض ساعة قتل مولاة مروان، وأن عامر بن إسماعيل لما قتل مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه، فعرض عليه رءوس القتلى، لأنه قتل في ستة أو سبعة من خواصه، وكانوا معه، فعرفه رأسه، وحمل عبد الحميد إلى أبي العباس، فسلمه إلى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله. وهنا أيضًا اضطراب في رأي من ترجحوا لعبد الحميد في نهاية أمره، كما

وقع الاختلاف في أصله، ولم يعقل أنه تخلف عن سيده في الجزيرة، والأرجح أنه قتل في مصر على رواية المسعودي.

بلاغته وأسلوبه:

كان عبد الحميد على ما قال صاحب العقد أول من فتح أكام البلاغة، وسهل طريقها، وفك رقاب الشعر، وضربت الأمثال ببلاغته، وقد أشار البحري إلى ذلك في قصيدته إلى محمد بن عبد الملك قال:

وتفتنت في البلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

وقال ابن الرومي لأبي الصقر:

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده لكان بين يديه مدعنا وسنا

وقال ابن اسفنديار الكاتب:

وهو في الحدق والبلاغة في التطفيل^(١) عبد الحميد في الكتاب

وقال أبو إسحاق الصابي:

أنسيتم كتباً شحنت فصولها بـفصول دُرِّ عندكم منضود

ورسائلًا نفذت إلى أطرافكم عبد الحميد بهن غير حميد

وقال إبراهيم بن عباس الصولي وقد ذُكر عبد الحميد عنده: كان والله الكلام معانًا له، ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لي إلا كلامه.

جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية، شرعها لكل من يحمل القلم بعده، فنقل الإنشاء من طور إلى طور لم يكذب يتغير حتى عهد ابن العميد، وقالوا:

(١) طفل الكلام تطفيلًا: تدبره.

افتتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وبلاغة عبد الحميد لا تجنيس فيها، شأن من كانوا من فصحاء العرب قبله ممن كان «كلامهم محض البلاغة»، «اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقاً غير مقصود قصده»، وهو «أول من فك رقاب الشعر وسرح مقيده إلى الشر».

ومعلوم أنه قلما عهد التطويل في الرسائل على عهد الراشدين والأمويين، فابتدع عبد الحميد أسلوبه الجديد الخاص به، وكان ذلك عقبى تشعب أغراض الخلافة، وامتداد عمراتها، وانبساط ظل سلطاتها، فتهج للكتاب سبل الإنشاء، وأعلى في العالمين ذكرهم، وشرف صناعتهم، وكانت قبله في الغالب لا تعد عملاً شريفاً من أعمال الدولة، ويتولاها على الأغلب الموالي ومن إليهم؛ فوقر هذا الفن الصعب في النفوس حتى كان الإنشاء ينقل صاحبه من دواوينه إلى أرقى دواوين الملك.

كان عبد الحميد أول من أطال الرسائل، ولا يتدئ بلولا، ولا، وإن رأيت، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فتابعه الناس على طريقته؛ والتحميد حمدك الله عز وجل مرة بعد مرة، وكثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، وهو أبلغ من الحمد، وربما سبق عبد الله بن المقفع إلى التحميدات، ولكنها لم تشتهر كما اشتهرت من ديوان عبد الحميد، وهو ديوان الخلافة يتناقل الناس عنه أكثر مما يتناقلون عن غيره.

ولم يكن عبد الحميد يطيل كل مرة في رسائله، بل يطيل مرة ويوجز مرة، لكنه إلى التطويل أميل؛ فصاحب هذا الانتقال في الكتابة حافظ على إيجازها ما أمكن، لكن الزمان اقتضاه أحياناً الإسهاب، فأسهب وأجاد في الطريقتين، خصوصاً إذا اقتضت الحال ذلك؛ مثل كتابه إلى أبي مسلم الخراساني الذي كتبه على لسان محمد بن

مروان لما ظهر أبو مسلم بدعوة بني العباس، كتب كتاباً يستميله ويضمنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم، وكان من كبر حجمه يُحمل على جمل، ثم قال لمروان: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره، فإن يك ذلك وإلا فإهلاك، فلما ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنار فأحرقه، وكتب على جُذاذة منه إلى مروان:

عما السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب
فإن يقدموا نعمل سيوفاً شحيذة يهون عليها العتب من كل عاتب

وقالوا: إن من جملة فقرات هذا الكتاب: «إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين»، ومعنى قول الراويين: إن كتابه من كبر حجمه يُحمل على جمل، أنه كان مكتوباً على رَقٍّ، وفي الرقوق تكتب الأسطر القليلة على الأغلب، وربما دعت كثرة الرقوق التي تضمنت هذا الكتاب أن لا ينهض رجل بحملها بل حملت لثقلها على جمل. وليس في هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب، مع ما عرف من تفننه في بلاغته، وهكذا جرى في رسالة أبي مسلم الخراساني، فأطال وحدث إطالته، كما أطال في نصيحته لعبد الله ولي عهد مروان، فقد كتب كتابه هذا في صفحات كثيرة، فوضع بيانه الرائع خططاً حربية، وطرقاً جديدة في النظام والإدارة والسياسة، وقواعد مهمة في التربية ولا سيما في تربية الملوك والعظماء، وأصولاً كلية في علم النفس والاعادات المستحبة، ومعاملة المرءوسين وطلاب الحاجات وأرباب السعایات وأصحاب الأخبار. وبالإيجاز لا يتأتى لأحد أن يفيض فيما أفاض فيه من الأغراض العظيمة.

كان عبد الحميد يقول: أكرموا الكتاب، فإن الله عز وجل أجرى أرزاق الخلق على أيديهم، وقال: إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب، ومن غرر كلامه: القلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، وكان

يقول: البيان في اللسان والبنان، ومن كلامه: خير الكلام ما كان لفظاً فحلاً ومعناه بكراً، ويروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطأ رديئاً فقال: أتحب أن يوجد خطك؟ قال: نعم. قال: أطل جلفة^(١) قلمك وأسمنها، وحرف قطتك وأيمنها. قال: ففعلت ذلك فجاد خطي، وذكر صاحب الصناعتين أن عبد الحميد كان إذا استخبر الكاتب في كتابه، فكتب خبرك وحالك وسلامتك، فصل بين هذه الأحرف ويقول: قد استكمل كل حرف منها آتته، ووقع الفصل عليه.

وكان كثيراً ما ينشد:

إذا خرج الكتاب كانت دُويهم قسيّاً وأقلام الدوي لها نبلا

قال زياد الأعجم: حضرت جنازة هشام فسمعت عبد الحميد ينشد:

وما سالم عما قليل بسالم وإن كثرت أحراسه ومواكبه

يريد سالم بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الرحمن أبو العلاء مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وكان على ديوان الرسائل لهشام وللوليد بن يزيد.

وإن كان ذا باب شديد وحاجب
فكما قليل يهجر الباب حاجبه
ويصبح بعد الحجب للناس مفرداً
رهينة بيت لم تستر جوانبه
فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
فكسبها السعادة جاهداً

ورويت هذه الأبيات للأصمعي بتغيير البيتين الأخيرين إلى قوله:

وما كان إلا الدفن حتى تفرقت
وإلى غيره أفراسه ومواكبه
وأصبح مسروراً به كل كاشح
وأسلمه أحبابه وحبابه

ومن شعره:

كفى حزناً أرى من أحبه قريماً ولا غير العيون تترجم
فأقسم لو أبصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنا نتكلم

نموذجات من مختصراته ومطولاته:

وإذا جئنا نعرف إلى عبد الحميد في مطالبه وحاجاته، وشفقته على نفسه وولده ورحمه، فلدينا مما أبقّت الأيام عليه من رسائله نموذجات يتجلى لنا فيها روحه؛ منها ما كتبه إلى مروان في حاجة: «إن الله بنعمته عليّ لما رزقني المنزلة من أمير المؤمنين، جعل معها شكرها مقرونا بها، فهي تنمي بالزيادة، والشكر مصاحب لها، فليست تدخلني وحشة من أبناء حاجتي، وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالي أغناني عن استزادته، ولكنني تكففتني مؤن استنفضت^(١) ما في يدي، وكنت للخلف من الله منتظراً، فإني إننا أتقلب في نعمه، وأتمرغ في فوائده، وأعتصم بسالف معروفة كان عندي».

ومنها ما أنشأه إلى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان: «أما بعد؛ فإن مما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بميزتها، واصطفيت بخصيصتها، كانت أسرّي من هبة الله لي ولداً أسميته فلاناً، وأمّلت ببقائه بعدي حياة وذكرى، وحسن خلافة في حرمي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعاً لي إلى ربه، عند خلوته في صلاته وحجه، وكل موطن من موطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجددي، وظهر به سروري، وتعطف عليه مني أنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي، أحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعدّله عندي عظيماً الفوائد ولا مُنْقَسات^(٢) الرغائب، سرنى به

(١) استخرجته.

(٢) مال منفس، ومنفس بكسر الفاء وفتحها: كثير.

واهبه لي على حين حاجتي، فشد به أزري، وحملني من شكره فيه ما قد آدني^(١) بثقل حمل النعم السالفة إليّ به، المقرونة سراؤها في العجب بما رأيت ما يدركني (؟) به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلاً من عواصف الأيام عليه. فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام، تأديبه بالزكاة وحرصه بالعافية، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته، والمدة في عمره، موصولاً بالزيادة، مقرونًا بالعافية، محوطًا من المكروه، فإنه المنان بالمواهب، والواهب للمنى، لا شريك له. حملني على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمي بحالك فيه (؟) وشركتك إياي في كل نعمة أسداها إليّ ولي النعم، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره، والسلام عليك».

ومنها ما أنفذه إلى أهله وهو منهزم مع مروان من فلسطين، وهو آخر حرب وموقعة كانت له، وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء، يعزيم عن نفسه: «أما بعد؛ فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكراهة والسرور، وجعل فيها أقسامًا مختلفة بين أهلها، فمن دَرَّتْ له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها، سكن إليها، ورضي بها، وأقام عليها؛ ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، قلاها^(٢) نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا لها؛ وقد كانت أذقتنا أفويق^(٣) استحليناها، ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا^(٤) مولية، فملح عذبتها، وخشن لينها، فابعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان؛ فالدار نازحة، والطير بارحة^(٥). وقد كتبت والأيام

(١) آده الأمر: بلغ منه المجهود.

(٢) قليت الرجل أقلية إذا أبغضته، والقلى - بالكسر -: البغض.

(٣) الفيقة - بالكسر -: اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الخلبتين، (ج) : فيق بالكسر، وفيق كعنب، وفيقات وأفواق، (جج) : أفويق، والأفويق ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة.

(٤) رمحتنا: رفستنا.

(٥) البارح من الصيد: ما مر من ميامنك إلى مياسرك.

تزيدنا منكم بعداً، وإليكم صباية ووجداً؛ فإن تتم البلية إلى اقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبناء، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم، نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار، نسأل الله الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأديان والأبدان، فإنه رب العالمين، وأرحم الراحمين».

وفي رواية أنه ختم هذه الرسالة هكذا: «فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثل ما تقربت، وأعقبت بالراحة نصباً، وبالجدل همّاً، وبالأمن خوفاً، وبالعز ذلاً، وبالجدّة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتاً، لا ترحم من استرحمها، سألكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقبوعين عن الأحباء».

ومن رسائله المختصرة ما كتبه عن مروان إلى هشام، يعزيه بامرأة من حظاياها: «إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته، متاعاً مده إلى أجل مسمى، فلما تمت له مواهب الله وعاريتته، قبض الله العارية، ثم أعطى الله أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها، أنفس منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأسنى في العوض، فالحمد لله وإنا إليه راجعون».

وكتب موصياً بشخص وهي من مختصراته: «حقُّ موصل كتابي إليك كحقه عليّ، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله».

وكتب عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن في السلامة: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو في نعمة الله عليه، وبلائه عنده في ولده وأهل لحمته، والخاص من أموره والعام والجنود، والقواصي والثغور، والدهماء من

المسلمين، على ما لم يزل ولي النعم يتواه من أمير المؤمنين، حافظاً له فيه، ومكرماً له بالحياطة لما أهماه الله فيه من أمر رعيته، وعلى أعظم وأكمل ما كان يحوطه فيه، ويذب له عنه؛ والله محمود مشكور إليه مرغوب فيه. أحب أمير المؤمنين لعلمه بسرورك به، أن يكتب إليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع وأعظم المنازل؛ فازدد منه تزدد به، وحافظ عليه تحفظ به، وارغب فيه يهد إليك مزيد الخير، ونفائس المواهب، وبقاء النعم. فاقراً من قبلك كتاب أمير المؤمنين إليك، ليسرَّ به جندك ورعيتك، ومن حملة الله النعم بأمر المؤمنين ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين في بدنه، ورأفته بهم، واعتائته بأموورهم، فإن زيادة الله تعلقو شكر الشاكرين والسلام».

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خرَّج عن الطاعة وهو:

«أما بعد؛ فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المُرْدَ على الجُرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، يرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال^(١)، رجال هم الرجال، بين رامج وناشب، ليس معهم إلا كلبٌ محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب، قد ضُرُّوا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام، ليسوا بذي هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعتتهم الختوف، يزأرون زئير الأسود، ويشبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاكٍ محتبك، في الحرب محترَب^(٢)، قد شرب على ناجذ^(٣) الحرب وأكل، ذو

(١) الجريال - بالكسر - : صبغ أحمر وحمرة الذهب وسلافة العصفور وما خلص من لون أحمر وغيره، والخمر أو لونها كالجريالة فيهما، والمقصود هنا الصبغ الأحمر.

(٢) حرب كفرح كلب واشتد غضبه.

(٣) الناخذ: الضرس أو الناب.

شقسقة وككل^(١)، كأنها أشرب وجهه نقيع الخناء، قد رثم^(٢) الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها ويأنس بقربها، فهو بطلبها أرب، وعلى أهلها حرب، ولا يروعه ما يروع، ولا يزيغه ما يُزيغ العُمر الجبان، حين يشتد الوغى، وتخطر القنا، وتُقَلِّص الشفاه، وتسفر الكمامة، فعند ذلك تُسلمك المرء، وتكشف عن الجرد، فتأهب لذلك أهبتك، واخطب له خِطبتك من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعًا فلا تنظرون، فما ضَرَّنا إكثارك الجموع وحشدك الخيول، فإنك لا تكثف جمعًا، ولا تسرب خيلًا، إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نصره، بما قد جرت به سنته، وسلفت به عادته، ونحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة. رأيتم ذلك في المنازل، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل؛ فأبشر منا بما ساءك ضجرًا، وعساك تُقاد كما يقاد الجمل المخشوش^(٣). أما بعد؛ فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك، إلا ما أحب من رب صنيعته قبلك، واستتمام معرفته إليك، وكان أمير المؤمنين أحق من أصلح ما فسد منك، وإنك إن عدت لمثل مقاتلك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معالجتك رأيه، فإن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرتة، فأساء حمل الكرامة، واستقل العافية، ونسب ما هو فيه إلى حيلته، وحسن نَبِيته ورهطه وعشيرته، وإذا نزلت هه الغيْر، وانكشفت عماية العشا^(٤) عنه، ذل متقادًا وندم حسيْرًا، وتمكَّن منه عدوه، قادرًا عليه وقاهرًا له. ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك، ومعالجة

(١) الكلكل والكلكال: الصدر أو ما بين الترقوتين، والشقسقة -بالكسر-: شيء كالرثة يخرج البعير من فيه إذا هاج.

(٢) رثم الحرب: أحبها وألفها.

(٣) خششت البعير: جعلت في أنفه الخشاش؛ أي: العود.

(٤) العشا مقصورة: سوء البصر بالليل والنهار كالعشاوة أو العمى، عشى كرضى، والعماية كالعماة والعمية (كغنية) وبضم: الغواية واللجاج.

إفسادك؛ جمع بينك وبين من شهد فلتات خطئك وعظيم زلتك؛ ولعمري لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك، وجحودك فضله عليك، لردك إلى ما كنت عليه، ولكنك مستحقاً.

ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب، حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد، قائمين بالدولة العباسية: «فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكر، فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين».

ومن رسائله المفردات، رسالته في الشطرنج والتفكير من اللعب به، وهي: «أما بعد؛ فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله، وإيضاح معالجه بإظهار فرائضه، وبعث رسله إلى خلقه، دلالة لهم على ربوبيته، واحتجاجاً عليهم برسالاته، ومقدماً إليهم بإنذاره ووعدته، {ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة}، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه، ووقى به رسله، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له، على حين انطمست له الأعلام مخفية، وتشتت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رهبج الفتن، واعتلى قتام^(١) الظلم، واستنهد^(٢) الشرك، وأسدف^(٣) الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكته الحق، واستطرف الجور، واستنكح^(٤) الصدوف عن الحق، واقمطر^(٥) تلهب الفتنة، واستتزم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر، وغيابة فساد، فصعد بالحق مأموراً،

(١) الرهبج: الغبار. والقمام كسحاب: الغبار أيضاً.

(٢) استنهد: طلب أن ينهض.

(٣) أسدف الليل: أظلم.

(٤) استنكح: غلب، وصدف عنه: أعرض.

(٥) اقمطر: اشتد.

وبلغ الرسالة معصوماً، ونصح الإسلام وأهله دالاً لهم على المرشد، وقائداً لهم إلى الهداية، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية^(١)، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة، وإعلان عروة النجاة، موضحاً لهم سبل الغواية، زاجراً عن طريق الضلالة، محذراً لهم المهلكة، موعزاً إليهم في التقدمة، ضارباً لهم على الحدود، على ما يتقون من الأمور ويخشون، وما إليه يسارعون ويطلبون، صابراً نفسه على الأذى، والتكذيب، داعياً لهم بالترغيب والترهيب، حريصاً عليهم، متحنناً على كافتهم، عزيزاً عليه عنتهم^(٢)، رءوفاً رحيماً، تقدمه شفقتة عليهم، وعنايته برشدهم إلى تجديد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم، وسلامة أديانهم، وتخفيف أوامر^(٣) الأوزار عنهم، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، ناصحاً متنصحاً، أميناً مأموناً، قد بلغ الرسالة، وأدى النصيحة، وقام بالحق، وعدل عمود الدين، حتى اعتدل ميله، وذل الشرك وأهله، وأنجز الله له وعده، وأراه صدق أسبابه في إكماله للمسلمين دينه، واستقامة سنته فيهم، وظهور شرائعه عليهم، قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفطعات الذنوب، ومهبطات الأوزار، وظلم الشبهات، وما يدعو إليه نقصان الأديان، وتستهوهم به الغويات وأوضح لهم أعلام الحق، ومنازل المرشد، وطرق الهدى، وأبواب النجاة، ومعالق^(٤) العصمة، غاير مدخر لهم نصحاً، ولا مبتغى في إرشادهم غنماً.

فكان مما قدم إليهم فيه نهيه، وأعلمهم سوء عاقبته، وحذرهم أمره، وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة

(١) ضاحية: علانية.

(٢) يقال: وقع فلان في العنت؛ أي فيما شق عليه.

(٣) الأوامر: الأواخي وحدثها أسرة، والأواخي وحدثها الأخية بالمد والتشديد عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة.

(٤) المعلاق بالكسر: كل ما علق به شيء كالمعلق بالضم.

عليها، لما في ذلك من عظيم الإثم، وموبق الوزر، مع مشغلتها عن طلب المعاش، وإضرارها بالعقول، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين.

وقد بلغ أمير المؤمنين أن أناساً ممن قبلك من أهل الإسلام، قد ألجئهم^(١) الشيطان بها، وجمعهم عليها، وألف بينهم فيها، فهم معتكفون عليها، من لدن مُصبحهم إلى مُسأهم، ملهية لهم عن الصلوات، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم، و(ما) افترض عليهم من شرائع أعمالهم، مع مداعبتهم فيها، وسوء لفظهم عليها، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس، غير منكر ولا معيب، ولا مستفطع عند أهل الفقه، وذوي الورع والأديان والأسنان منهم، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه، وكرهه واستكبره، وعلم أن الشيطان عندما يئس من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل، بمقر المسلمين ومجمعهم صُراحًا وجهازًا، أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزين لهم ورطة موبقة، وغرهم بمكيدة حيلة، إرادة لاستهزائهم بالخدع، واجتيالهم بالشبه والمرشد^(٢) الخفية المشكلة، وكل مقيم على معصية الله صغرت أو كبرت، مستحلًا لها، مشيدًا بها، مظهرًا لارتكابه إياها، غير حذر من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائف مكروهاً فيها، ولا رعيب من حلول سطوته عليها، حتى تلحقه المنية فتختلجه^(٣) وهو مصر عليها، غير تائب إلى الله منها، ولا مستغفر من ارتكابه إياها. فكم قد أقام على موبقات الآثام، وكبائر الذنوب، حتى مدَّ به مخرم^(٤) أيامه.

(١) لهج بالشيء: أولع به.

(٢) المرشد: مقاصد الطرق، واجتالتهم الشياطين: صرفتهم عن هداهم إلى ضلالتهم، وفي الحديث: «خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين».

(٣) الرعيب كالمرعوب، وتختلجه: تنزعه.

(٤) المخرم كمجلس: المنقطع.

وقد أوجب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم، وأن ينذرهم ويوعز إليهم، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها، وما لهم في قبول ذلك من الحظ، وعليهم في تركه من الوزر. فأذن^(١) بذلك فيهم، وأنشده في أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز إليهم فيه، وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك^(٢) العقوبة لمن رُفع إليه من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها، وإطالة حبسه في ضيق وضنك، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين، وافطمهم عما نهجوا به من ذلك، والتمس بشدتك عليهم فيه، وإنهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه، واتباع أمير المؤمنين ورأيه، ولا يجدن أحد عندك هوادة^(٣) في التقصير في حق الله عز وجل والتعدي لأحكامه، فتحل بنفسك ما تسوؤك عاقبته، وتعرض به لغيره الله عز وجل ونكاله، واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله والسلام».

وعبد الحميد في رسالته هذه أشبه الوعاظ والفقهاء بلهجته، فقد رأيناه يكسو كلامه حلة من حلال الزهد، ويدخل مُدخلاً دينياً يورد فيه البراهين على قضيته، لينزع من النفوس حب التلهي بلعب يقطع صاحبه عن العمل، وذكر لهم أن اللاعبين بالشطرنج يذكرون خلال لعبهم ألفاظاً لا يليق بالألسن تردادها، ولا بالأسباع أن تنصت إليها، وعرفنا من رسالته بعد هذا أن أناساً من المنظور إليهم من الفقهاء وغيرهم من الأئمة كانوا مولعين بهذا اللعب منذ أوائل القرن الثاني.

ومن رسالة: «فإن الفتنة تتشوف لأهلها بأنق منظر، وأزين ملبس، تجر لهم أذيالها، وتعددهم تتابع لذاتها، حتى ترمي بهم في حومات أمواجها مسلمة لهم،

(١) آذن: أعلم.

(٢) نهك: بالغ في عقوبته كأنهكه؛ والنهك: المبالغة في كل شيء.

(٣) هوادة: لين ورفق.

تعدهم الكذب وتمنيهم الخُدَع، فإذا لزمهم عِضاضها، ونفر بهم^(١) شماسها، تحلَّت عنهم خاذلة لهم، وتبرأت منهم معرضة، قد سُلبوا أجل لباس دينهم، واستنزلوا عن أحسن معاقل دنياهم، من الغناء البهي منظره، الجميل أثره، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم، والإيفاف في التعب، وسوء المنقلب، فمن أثر دينه على دنياه، تمسك بطاعة ولاته، وتحرر بالدخول في الجماعة، تاركًا لأثقل الأمرين، وأوبل الحالين».

ومن رسالة له في وصف الصيد كتب بها إلى مروان فيما يظهر:

«...خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، وأكرمها أجناسًا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانًا، وأحدها أطرافًا، وأطولها أعضاء، قد تثقت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقع، وخبرت المجاثم، مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة^(٢)، من الشهرية^(٣) المصوفة بالنجابة، والجري والصلابة. فلم نزل بأخفض سير وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرًا متداركًا قَرِبت الأرض منه، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنايك^(٤)، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسنًا، ولا مرموقًا أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيل تمرح بنا نشاطًا، وتجذبنا أعتها انبساطًا، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر، وتخفي سبيل

(١) العِضاض: الداهية والزمن الشديد الكلب؛ وملك فيه عسف وظلم، وشمس الفرس شموسا

وشماسًا: منع ظهره فهو شامس وشموس.

(٢) دابة فراهة: نشيطة حادة قوية.

(٣) بكسر الشين ضرب من البراذين.

(٤) السنيك والجمع السنايك: طرف الحافر وجانباه.

السلام، تغشانا تارة، وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمثة التراب، أشبة^(١) الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيداً من الطباء والشعالب والأرانب، فأدانا المسير إلى غاية دونها مألّف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب معمنون، وبكل حَرَّة^(٢) جونة متفرقون، فرجع بنا العود على البدء، وقد انجلت الضبابة وامتد النظر، فإذا نحن برَعلة^(٣) من طباء وخلفة آرام يرتعن أنسات، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا، فلم نعج إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغاية، ومنتهى نظر الشاخص، ثم مدت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاودها، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسف الأرض سقاً^(٤)، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة^(٥) بأظفارها، قد مزقتها تمزق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكض تحت مفره وخافق يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسائح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهاب.

ثم ملنا، يا أمير المؤمنين، بهداية دليلة قد أحكمتها التجارب، وخبر أعلام المذانب^(٦) إل غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف

(١) أشبة: ملتفة، ودمثة: سهلة لينة.

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، والجون الأسود والأثني جونة.

(٣) الرعلة: القطعة من الخيل وقد تكون من البقر، والخلفة: اختلاف الوحوش مقبلة مدبرة.

(٤) السفيف: المرور على وجه الأرض.

(٥) صائدة.

(٦) مسائل الماء، والأعلام مفردة علم وهو منصوب في الطريق يهتدى به، والعلم: الجبل.

الْحَمْرُ^(١)، مملوءة من أنواع الطير، لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص، فخفق لها بالطبول، وصفر بنفير الحتف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها، ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطالب لها، ويخفضن الظفر بها، حتى سئنا من الذبح، وامتلاًنا من النضح^(٢)، كأننا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نُصرت على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرحاً، ولا نستفيق من الجذل بها فرحاً، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب.

ثم غدونا، يا أمير المؤمنين، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزلّ واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا على غير الحقيقة، فأتيناه فلم نر صيداً ولا عشباً، ولا نزهة ولا حسناً، فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعوراً، وجدوباً وقفراً، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النَّصَب. فيينا نحن كذلك؛ إذ بدا لنا جَاب^(٣) قد أوفى بنا على حائل^(٤) دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأعمناها فلما تطرفنا مشياً وتقريباً إلى عاناته^(٥)، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهلن أمره، حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات وهربن مسيئات، فأجهدنا الركض في

(١) الحمر: الشجر المتكاثف، والمستأجمة: كثيرة الشجر الملتف، والتلاوين من لون البُسر تلويناً بدا فيه أثر النضج، والتلوين أيضاً: تقديم الألوان من الطعام للتفكه والتلذذ، ويطلق على تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر.

(٢) النضح: البلل.

(٣) حمار وحشي.

(٤) الحائل: كل شيء تحرك في مكانه، وقد حال يحول واستحال الشخص: نظر إليه هل يتحرك.

(٥) العانة: الإتان والقطيع من حمر الوحش.

طلبهن، تتبع آثارهن، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وأخاديد^(١)، حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل، بجنبته غابة أشبه، قد سبقن إليها، واستخفين فيها، فنظمتها بالخييل نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال» اهـ.

وهذه رسالة وقفنا على مبلغ عنايتهم بالصيد، ووصفت لنا ما لاقاه الصائدون، وصفًا رائعًا مستوفيًا كأننا كنا معهم؛ وصف عدتهم التي أعدوها، والأرض التي وطئوها، والشدة التي لقوها من سماء أمطرتهم وابلًا وردًا آذاً، وكيف استخدموا الجوارح في صيودهم، وما احتالوا من الحيل وحصروا من الوكد حتى تمت لهم أميبتهم، فصادوا ما شاء الله أن يصيدوا، وعادوا مملوءة عبايهم وجعابهم بأنواع الصيد.

ومن رسالة له في الفتنة: «ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم والتسليم لما أمروا به، فهُمْ كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية مجللة، وسلامة ظاهرة وباطنة، وقوة بإذن الله مانعة، وفي الخلاف لهم والمعصية عليهم، ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة، ومحق كل قنية، وهلاك كل سلامة وألفة، وموت كل عز وقوة، والدعاء بكل بلية، ومقارنة كل ضلالة، واتباع كل جهالة، وإحياء كل بدعة، وإماتة كل سنة، وإجلاب كل ضرر على الأمة، وإدبار كل منفعة، والعمل بكل جور وباطل، وفناء كل حق، وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي بيديه سيف أخيه الذي كان يعتمد عليه، ويوهن عضده، ويهدم حصنه، ويفلُّ عدده، ويهلك ثروته، ويعلمب من يدعوه، ويفزع إليه، ويكثر بمكانه،

(١) الدكادك: جمع دكدك وهي الأرض فيها غلظ، والأخاديد: جمع أخدود وهو حفرة مستطيلة في الأرض.

ويجرسه من غفلته عن الأعداء إذا غفل، ويكون عبثاً له من خلفه، فلا يزال بالمحضية منهم والاختلاف دم يُهراق بغير حقه، وطفل من أبناء المسلمين قد يتم من أبيه، ومذلة قد دخلت عليه، ونعمة قد زالت عنه، ووحشة قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبت، وشحناء قد ظهرت، وأوتار^(١) قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت، وخوف قد ظهر، وسبل قد قطعت، وامرأة قد أُرملت، وصبيبة قد يتمت، وبلاد عامرة قد خربت، وعدد قد نقص، وبلايا قد عمت وشملت، وعدو قد شمت، ومنافق قد رَفَع إلى ما كان يؤمل رأسه، وعدو من المشركين قد طمع وقوي بعد ضعف، وعزٌّ بعد مذلة، ورعية قد صاحت، وناعية قد ولولت، وحميم قد قتل حميمه، ومودة قد صارت عداوة، واجتماع من الأهواء قد عاد إلى فرقة، وأرحام قد تقطعت.

فانظروا يا معاشر المسلمين ماذا تفعل الفتنة والمعصية، وكيف يدب الشيطان لها، ويسعى فيها، ويحتال بخديعته ومكره، ولطف مسالكة حتى يُلهبها ويشعلها، ويرفعها من قلبها إلى الكثرة، ومن صغرها إلى كبرها، فإنه إنما يبدو الظفر على الولاية (؟)، ثم يترامى إلى الشكاة والسَّخطة والغضب، وزين لهم القتال فبلغ الهلاك الأعظم، والشر الأكبر، بطرق أمر صغير الخطر في الظاهر، عظيم البلية في الباطن، فلا يزال الرجل ينظر منهم إلى قاتل أبيه وأخيه وحميمه وذوي قرابته وأهل مودته والنافع كان، ثم تحمّل العداوة في قلبه، والضعينة العظيمة عليه، ويستعد للنقمة منه، وطلب الدَّخْل^(٢) عنده، فبثت تلك الضغائن في الأبناء بعد الآباء؛ فانظروا يا أهل الإسلام من أين دب الشيطان بلطيف مسالكة، وعلى أي شيء ورد، وإلى أي أمر تسامى، حتى عم بالمعصية أهل الإسلام عامة» اهـ.

(١) الوتر بالكسر: الدحل؛ أي الثأر.

(٢) الدحل: الثأر أو طلب مكافأة بجناية.

واستفدنا أيضًا من هذه الرسالة أن البلاد كانت تموج بالفتن أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد الأموي، وأن عبد الحميد يريد بتأثير قلمه أن ينزع أهل الأقطار عن الترددي^(١) في مهالكها؛ ولكم كتب من مثلها منذ نادى أهل خراسان بشعار العباسيين يا ترى؟ وما نظن إلا أن مجموعة رسائله تبلغ أكثر من ألف ورقة، لا كما قال بعضهم، وقد عرفنا بهذا النموذج الضئيل الذي بقي من ذاك التراث العظيم أن صاحبنا كان بعيد النظر في السياسة، شديد الغيرة على سلطان بني أمية، عارفاً بما سيحلُّ بالدولة، وود لو يتحيل لها بمخرج ينجيها ولو بعض الشيء من المأزق الذي صارت إليه، حتى لقد أراد سيده على أن يعتمد إلى الزواج السياسي، ويتقرب من بني هاشم بالإصهار إليهم. قال مروان حين رأى علو أمر بني العباس: أتتهمني يا أمير المؤمنين فيك؟ قال: لا. فقال له: أرأيت إبراهيم بن محمد بن علي أليس ابن عمك؟ قال: بلى. قال: فإني أرى أموره تنبغ^(٢) عليك فأنكحه وانكح إليه، فإن ظهر كنت أعلقت بينك وبينه سبباً، وإن كفيته لم تُثمنَ بصهره. فقال: ويحك! والله لو علمته صاحب الأمر لسبقت إليه، ولكن ليس هو بصاحبه، فقال له: وما يضرك من ذلك، وهو من القوم الذين تعلم أن الأمر منتقل إليهم لا محالة، وأن الصواب أن تعلق بينك وبينهم سبباً؟ قال مروان: والله إني لأعلم أن الرأي فيما تقول، ولكنني أكره أن أطلب النصر بأحراج النساء.

لعبد الحميد الأكبر رسالتان كبيرتان: الأولى رسالته في نصيحة ولي العهد، والثانية رسالته إلى الكتاب؛ كتب الأولى على لسان مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله، لما وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧، وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة

(١) تردى في مهواة: سقط فيها، ورديته تردية.

(٢) ثور وتفشو.

يمكن إجمالها في موضوعين مهمين: الأول: درس عظيم في تربية أبناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة، والثاني: وضع خطط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو. وقد أثبت عبد الحميد بهذه الرسالة أنه من علماء التربية والنفس، وأنه عارف بالسياسة والإدارة والحرب، يستطيع أن يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه.

بدأ رسالته في وصف الخارجي، وأن الخليفة أراد أن يعهد إلى ولي عهده عهداً يحمله فيه أدبه، ويشرع له عظته، وإن كان ولي العهد في الغاية من الدين، والتحلي بما يَحْسُنُ بالخلافة، ولو لم يكن كذلك ما خصه أبوه بالولاية عنه دون بني أبيه؛ وقال له: إن الخليفة بوعظه ابنه أيضًا ائتمر بأمر الله، وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير، وإن كانوا أهل معرفة وأولي سابقة في الكمال وفضل في العلم. قال: ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، ولقنوه إلهامًا من تلقائهم، ولم يتعلموا شيئًا من عند غيرهم، لنحلناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة قصرهم بها عنهم خالقهم، المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيتها في فردانيتها في إلهيته... قال: وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق^(١) بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خلق، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعود من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف، ومنجحة لك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر مغاني الأدب، مورثة لك أنفس ذخائر العز.

وبعد أن كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب، انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال: «والله أستخلف عليك، وأسأله حياطتك، وأن يعصمك من زيغ

(١) حاق به شيء: نزل.

الهوى، ويحضرك دواعي التوفيق، معانًا على الإرشاد فيه، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو». وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من أجمل ما بدر على قلمه؛ ذلك أن الخليفة بعد أن خاطب ابنه خطابه عاملاً من عماله، عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده، ليوفق في مقاصده ويسلم في بدنه. ثم هوّن عليه الأمر، وأبان له قدر نفسه، وما تيسر له من أسباب التفوق بأخلاقه فقال: «وقد تلتقت أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها، من غير تعب البحث في إدراكها، ولا متناول المنال لذروتها، بل تأثلت^(١) منها أكرم معانيها، واستخلصت منها أعتق جواهرها، ثم شمردت إلى لباب مصاصها، وأحرزت منفس^(٢) ذخائرها، فاعتقد ما أحرزت، ونافس فيما أصبت». ومما قدمه له من العظة في ذلك أن يشكر الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية، وأن يقرأ فيه من كتاب الله جزءاً يردد فيه رأيه في أدبه، ويزين لفظه بقراءته، ويحضر عقله ناظرًا في محكمه، ويفهمه متفكرًا في متشابهه؛ يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين، وتقوية ملكته في البلاغة.

وبعد ذلك التفت فقال: «ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق^(٣) الحسنات، ومفتاح السيئات، واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك، لأنها خدع إبليس وحبائل مكره، ومصايد مكيدته، فاحذرها مجانبًا لها، وتوقها محترسًا منها، واستعد بالله من شرها، وجدهدها إذا تناصرت^(٤) عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مثنوية^(٥) لرأيك بعد إصداره عليك، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاعة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا

(١) تأثلت: اكتسبت.

(٢) منفس: ما يتنافس فيه.

(٣) المغلاق بكسر الميم: ما يغلق به الباب.

(٤) تناصرت الأخبار: صدق بعضها بعضًا.

(٥) مثنوية: استثناء.

خلجة^(١) شك فيها، فإن ذلك ظهري^(٢) صدق لك على ردها عنك، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك، وهي واقية لك سخطة ربك، داعية لك رضا العامة، ساترة عليك عيب من دونك... فحاول بلوغ غايتها، محرزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنا أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة، حارسا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي العادات».

«ومنها أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرّك بالكتمان، وتداوي جندك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وأناتك فوقها لئلا وفوت العمل، ومضاءتك فدرعها روية النظر، واكتفها بأناة الحلم، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه عيّي اللفظ، وخف فيه سوء القالة^(٣)، واستماعك فازعه^(٤) حسن التفهم، وقوّه بإشهاد الفكر، وعطاءك فانهد^(٥) له بيوتات الشرف وذوي الحسب، وتحرز فيه من السرف، واستطالة البذخ^(٦) وامتنان الصنيعة، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر، وحلمك فزرعه عن التهاون، وأحضره قوة الشكيمة^(٧)، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط، وتعمد بها أهل الاستحقاق، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق، وخذ به واجب المفترض، وأقم به أود الدين، واستناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة^(٨)، وتعهدك أمورك فحدّه

(١) خلجة: اضطراب.

(٢) ظهري: عدة.

(٣) يطلق القول في الخير، والقال والقيل والقالة في الشر.

(٤) أسمعه.

(٥) نهد الهدية: عظمها وأضخمها.

(٦) البذخ: الكبر.

(٧) الشكيمة: قوة القلب.

(٨) المثافنة: المباطنة، وفي رواية: المثافنة ومعناها الأذية.

أوقاتاً، وقَدْره ساعات، لا يستفرغ قوتك، ويستدعي سأمك، وعز ماتك فانف عنها عجلة الرأي، ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكمها^(١) عن البطر، وقيدها عن الزهد، وروعاتك فحطها من دهش الرأي، واستسلام الخضوع، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيده بخوف الفاتت، وامنعه من أمن الطلب».

ثم ذكر له كيف يتخير عشائه ويعامل مشاوريه، ويتوقى انتشار أخباره في العامة، إلا على ما لا يسقط من شأنه، فقال: «ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في شرك، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك، ممن قد حنكته السنُّ بتصاريف الأمور، وخبطته فصالها بين فراسن^(٢) البزل منها، وقلبته الأمور في فنونها، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور، ومواضع الرأي، مأمون النصيحة، مطويّ الضمير على الطاعة، ثم أحضرهم من نفسك وقاراً، تستدعي منهم لك الهيبة، واستتناساً يعطف إليك منهم بالمودة، وإنصافاً يفلُّ إفاضتهم عندك بما تكره أن ينتشر عنك من سخافة الرأي، وضياح الحزم، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقطعك دون الفكر. وتعلم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه سترك، وأغلقت عليه أبوابك، فذلك لا محالة مكشوف للعامة، ظاهر عنك وإن استترت بربها ولعل، وما أرى إذاعة ذلك، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن، فتقدم في إحكام ذلك من نفسك وسدَّ خلله عنك، فإنه ليس أحد أسرع إليه سوءُ القالة، ولغط العامة بخير أو شر، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت فيه من دين الله، والأمل المرجو المنتظر فيك».

(١) شكّم. يشكّمه شكماً: وضع الشكيمة في فيه، والشكيمة في اللجام الجديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفأس. وفأس اللجام هي الحديد القائمة في الشكيمة إذا كان ذا عارضة وحد، (ج) شكائم وشكّم.

(٢) الفرسن والجمع فراسن: رجل الحمل، والبزل كركع: جمع بآزل وهو البعير إذا ظهر نابه، ومن المجاز: الرجل الكامل في تجربته.

ثم حذرهم من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس، فكلّمه في أمور عامة تنتظم بسيره وبسيرته فقال له: «وإياك أن يغمز»^(١) أحد من حامتك وبطانة خدمك، بضعفة يجد بها مساعاً إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه، ولا تخلو من الأحدوثة لائمته، ولا تأمن سوءاً فيه، ولا يرخص سوء القالة فيه، إن نجّم ظاهراً، أو أعلن بادياً، ولن يجترئوا على تلك عندك، إلا أن يروا منك إصغاءً إليها، وقبولاً لها، وترخيصاً لهم في الإفاضة بها، ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات، والمزاح والمضحك، التي يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعب يذيعونه، ولطعن في حق يجحدونه، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودرك العرض، وهدم الشرف وتأثيل^(٢) النفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد، فإذا قدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه، وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقداً وأعلى كموناً، وأسرع إليه بالعب، وتطرق الشين، منها إلى من كان في سنك من أغفال^(٣) الرجال، وذوي العنفوان في الخدائفة الذين لم يقع عليهم سمات الأمور ناطقاً عليهم لائحها، ظاهراً عليهم وسمها، ولم تحضهم شهامتها، مظهرة للعامة فضلهم، مذيعة حسن الذكر عنهم، ولم يبلغ بهم الصيت في الخنكة مستمعاً يدفعون به عن أنفسهم نواطق السن أهل البغي، ومواد أبصار أهل الحسد».

وعاد بعد أن حذرهم من الخفة في المواكب، ومداعبة من يسايره بالتضحك إليه، يريد على أن يستعمل الجدل في حركاته، بحيث لا تتقلقل جوارحه، ويجذرهم من السعاية، ويدله على الطريقة في معاملة النمامين، وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة

(١) أغدز في فلان: إذا عابه واستضعفه وصغر شأنه، والحامة: القرابة والأسرة.

(٢) التأثيل: التأصيل.

(٣) رجل غفل: لم يجرب الأمور.

معاملتهم، لا يأخذ منهم إلا ما ينفع الدولة فقط، ونهج له السبيل السوي في معاملة أصحاب الحاجات، فقال: «واعلم أن قومًا سيسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك من قبيل النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويوظفونك عشوة^(١) الخيرة، ليجعلوك ذريعة لهم إلى استكمال^(٢) العامة، بموضعهم منك في القبول منهم، والتصديق لهم على من قرفوه^(٣) بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنة، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة، فيعرضك لابتداع^(٤) في دينك، ويملكك على رعيتك ما لا حقيقة فيه، ويلحملك^(٥) أعراض قوم لا علم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعيًا، وأظهر لك منهم متنصحا.

وليكن صاحب شُرتك، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك، إليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحك، ثم ليئه ذلك إليك على ما يرتفع إليه منه، لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك، من غير أن يظهر ذلك للعامة، فإن كان صوابًا نالتك حظوته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطًا سعى بها كاذب، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر منك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب^(٦) ذلك الخطأ بك، ولم تنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذم فيه، محضرا إليه ذهنك وصواب رأيك، وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر، وتعتمد عليه فيه، أن لا يقدم على شيء ناظرًا فيه، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له، ولا

(١) العشوة: الظلمة.

(٢) استأكل الضعفاء: أخذ أموالهم.

(٣) قرف فلانًا: عابه أو اتهمه.

(٤) في رواية: لإبتاغ دينك، يقال: أوتغته أهلته، وهذا عما يوتغ الدين والمروءة.

(٥) أحم الحرب فالتحمت؛ أي: يعرضك للهلكة بقرض عرض من لا تعرف.

(٦) عصب القوم بفلان: أحاطوا به.

يعاقب احداً منكلاً به، ولا يخلي سبيل أحد صافحاً عنه لإصحار^(١) براءته، وصحة طريقته، حتى يرفع إليك أمره، وينهي إليك قضيته على جهة الصدق، ومنحى الحق، ويقين الخبر، فإن رأيت عليه سبيلاً لمحبس، أو مجازاً لعقوبة، أمرته بتولي ذلك من غير إدخاله عليك، ولا مشافهة لك منه، فكان المتولي لذلك، ولم يجر على يديك مكروه رأيي، ولا غلظة عقوبة، وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلاً، أو كان مما قُرف به خلياً، كنت أنت المتولي للإنعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه بإطلاق أسرته، فتوليت أجر ذلك واستحقت ذخره، وأنطقت لسانه بشكرك، وطوقت قومه حمدك، وأوجبت عليه حقك، فقرنت بين خصلتين، وأحرزت خطوتين؛ ثواب الله في الآخرة، ومحمود الذكر في العاجلة.

ثم وإياك أن يصل أحد من جندك، وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك، أو حاجة بيدهك بطلبها، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفته لذلك ونصبت له، فيعرضها عليك منهيًا لها على جهة الصدق عنها، وتكون على معرفة من قدرها، فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سأل منها، أذنت له في طلبها، باسطاً له كنفك، مقبلاً عليه بوجهك، مع ظهور سرورك بما سألك، فسحة رأيي، وبسطة ذرع، وطيب نفس؛ وإن كرهت قضاء حاجته، وأحييت رده عن طلبته، وثقل عليك إجابته إليها، وإسعافه بها، أمرت كاتبك فصفحه^(٢) عنها، ومنعه من مواجعتك بها، فخفت عليك في ذلك المؤونة، وحسن لك الذكر، ولم ينشر عنك

(١) الإصحار: الرضوح.

(٢) يقال: أتاني فلان في حاجة فأصفحته عنها إصفاً إذا طلبها فمنعته. قال ابن الأثير: صفحته إذا أعطيته، وأصفحته إذا حرمته، وصفحته عن حاجته يصفحها صفحاً، وأصفحها كلاهما رده.

تجههم^(١) الرد، وينلك سوء القالة في المنع، وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها بريء الساحة.

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طراً عليك من الوفود، وأتاك من الرسل، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إياك، وعلم ما قدم له عليك، وجهة ما هو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه، إذا وصل إليك فأصدرت رأيك في حوائجه، وأجلت فكرك في أمره، واخترت معتزماً على إرادتك في جوابه، وأنفذت مصدرور رويتك في مرجوع مسألته، قبل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك، فرفعت عنك مؤونة البديهة، وأرخيت عن نفسك خناق^(٢) الروية، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر، وإجالة الفكر فيه، فإن دخل إليك أحد منهم، فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك، وطوى عنه حاجته قبلك، دفعته عنك دفعا جميلاً، ومنعته جوابك منعاً وديعاً، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له، والغلظة عليه، ومنعته من الوصول إليك، فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب، صارفاً عنك مؤونتها، ومسهلاً عليك مستصعبها.

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين، يريد بها أن يرفع مقامه بين الناس، على اختلاف مطالبهم، وأن يظهر بمظهر الكرامة، بعيداً عن تجبيه قاصديه والتجههم لهم، وهو ضرب من حسن السياسة ما نخال رجال الدولة الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الأنظار، ويتركوا للمراجعين فسحة من الأمل، ولا يقطعوا معهم قطعاً بتاً، وأن يستهدف صغار العمال للنقد وأفضع من النقد، والرئيس بمأمن، على حين هو الكل في الكل والصغير عن رأيه

(١) جهم: ككرم جهامة وجهومة، وجهمه كمنعه وسمعه استقبله بوجه كرهه كتجهمه وله.

(٢) اخناق ككتاب الحبل ينجق به، وكغراب: داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة والقلب، ويقال أيضاً: أخذ به خناقه بالكسر والضم ومخنقه أي بحلقه (القاموس).

صدر، ولإرادته نفذ، ولقانونه طبق، وماذا يصير هذا لو حمل الناس عليه بالطعن، وقد يفادى بالثبات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة، واستبقاء الكرامة والحظوة، في سبيل الرفع من مكانة الرئيس الأول، فإن بسقوطه سقوط الدولة، وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال. وحقيقة فإن من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلاً أكثر مما يوفق العظيم في الدولة؛ لأنه متمحض لذلك، ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الأمة إذا عمل صاحبه في جزئيات الأمور عملاً قد يجيده العامل الصغير، ويوفق فيه، ويوفر على صاحبه وقته، ويرفع في العيون شخصيته.

جوّد عبد الحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك وسياسة الرعية، ثم أنشأ ينهج للمكتوب إليه طريقاً مهيباً^(١)، في سلوكه مع جلسائه وبطانته، وأهل مشورته وأعوانه، وفي أحوال نفسه. وتالله لقد لقنه هنا أدباً، وحدد له عادات أشبه بقواعد الحياة العامة في الممالك المتحضرة اليوم. والعقل البشري على كثرة ارتقائه جيلاً فجيلاً، لن يبرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل ألف سنة يستحسن اليوم، وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا لأنفسهم منذ ثلاثة عشر قرناً. قال عبد الحميد:

«احذر تضييع رأيك، وإهمالك أدبك، في مسالك الرضا والغضب، واعتوارهما إياك، فلا يزدَهِيَنَّكَ إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهيوك منظره، ولا يبدون منك (في) ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلَّ بك، أو حادث إن طرأ عليك... وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام^(٢) أعراض الناس عندك بالغيبة،

(١) طريق مهيب: واضح واسع بين، وجمعه مهابيع.

(٢) استلحم: اتبع، وفي حديث أسامة: فاستلحمتنا رجل من العدو؛ أي: تبعنا، يقال: استلحم الطريدة والطريق؛ أي: تبع.

والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض، أو النسيمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة، فإن ذلك أبلغ بك سموًا إلى منالة الشرف، وأعون لك على محمود الذكر، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير.

واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق^(١)، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله^(٢)، فإن ذلك ضعف عن ملك سؤرة الجهل، وخروج من انتحال اسم الفضل، وليكن ضحكك تبسمًا أو كثيرًا في أحيان ذلك وأوقاته، وعند كل رائع مطرب، وقطوبك إطرًا في مواضع ذلك وأحواله، بلا عجلة إلى السطوة، ولا إسراع إلى الطيرة، دون أن يكتف روية الحلم، وتملك عليها بادرة الجهل.

إذا كنت في مجلس مَلِك، حيث حضور العامة مجلسك، فإياك والرمي بنظرك إلى خاص من قوادك، أو ذي أثر^(٣) عندك من حشمك، وليكن نظرك مقسومًا في الجميع، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة، ووقار حسن، وحضور فهم مجتمع، وقلة تضجر بالمحدث، ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهًا بنظر ركين، وتفقد محض، وإن وجه إليك أحد منهم نظره محددًا، أو رماك ببصره ملحًا، فاحفض عنه إطرًا جميلًا باتداع وسكون، وإياك والتسرع في الإطراق، والخفة في تصريف النظر، والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقًا بنظره.

(١) الاتساع.

(٢) تنحل الشيء وانتحله: ادعاه.

(٣) في الحديث قال للأنصار: «إنكم ستلقون بعدي أثره فاصبروا». الأثره بفتح الهمزة والياء: الاسم من أثر يؤثر إثرا إذا أعطى، أراد أن يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء.

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك، وتفقدك مجانسة قوادك، من قوة التدبير، وشهامة القلب، وذكاء الفطنة، وانتباه السنة، فتفقد ذلك عارفاً بمن حضرك وغاب عنك، عالماً بمواضعهم من مجلسك، ثم اغدُ بهم عن ذلك سائلاً لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك، وعاقبتهم بالتخلف عنك.

إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغييب ضمير، وتعرف منه لين طاعة، وتشرف منه على صحة رأي، وتأمته على مشورتك، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك، أن تريبه أو أحدًا من أهل مجلسك أن بك حاجة إليه موحشة، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضش دونه رأياً إشراكاً منك له في رويتك، وإدخالاً منك له في مشورتك، واضطراراً منك إلى رأيه في الأمر يعروك، فإن ذلك من دخائل^(١) العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسك، خائفاً لاعتلاقتها ذكرك، واحجبها عن رويتك قاطعاً أطماع أولياتك عن مثلها عندك، أو غلوبهم عليها منك؛ واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر، ولكل أمر غاية تحيط بحدوده وتجمع معالمه، فابغها محرراً لها، ورُمها طالباً لنيلها، وإياك والقصور عن غايتها، أو العجز عن دركها، أو التفريط في طلبها إن شاء الله تعالى.

إياك والإغرام^(٢) عن حديث ما أعجبك، أو أمر ما ازدهاك بكثرة السؤال، أو القطع لحديث من أراذك بحديثه، حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه، فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم، وقصر الأدب، عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساوئها، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك، حتى يعلم

(١) الدخيلة: باطن الرجل ويقال لها: الداخلة، والدخلة بضم أوله وفتح وكسره.

(٢) كذا في الأصل ولعلها الإعراب.

أن قد فهمت حديثه، وأحطت معرفة بقوله، فإن أردت إجابته فعن معرفة بحاجته، وبعد علم بطلبته، وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء، فأجزى عنك الجواب، وقطع عنك السن العتب.

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك، أو تضجر ممن حضرك، وعليك بالتثبت عند سؤرة الغضب، وحمية الأنف، وملال الصبر في الأمر تستعجل به، والعمل تأمر بإنفاذه، فإن ذلك سخف شائن، وخفة مردية، وجهالة بادية، وعليك بثبوت المنطق، ووقار المجلس، وسكون الريح، والرفض لحشو الكلام، والترك لفضوله، والإغرام بالزيادات في منطقتك، والترديد للفظك من نحو اسمع وافهم عني وياهناه، وألا ترى، أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل، الشائنة لذوي الحجا في المنطق، المنسوبة إليهم بالعي، المردية لهم بالذكر، وخصال من معائب الملوك، والسوقة عنها غبية النظر، إلا من عرفها من أهل الأدب، وقلما حامل لها، مضطلع بها، صابر على ثقلها، آخذ لنفسه بجوامعها، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها، واملك عليها اعتيادك إياها معتنيًا بها، منها كثرة التنخم والتبصق والتنخع، والثوباء والنمطى والجشاء، وتحريك القدم، وتقيض الأصابع، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الإيباض بالنظر، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته، أو السرار في مجلسك، أو الاستعجال في طعمك أو شربك، وليكن طعمك متدعًا وشربك أنفاسًا، وجرعك مصًا، وإياك والتسرع في الأيوان فيما صغر أو كبر من الأمور. والشثيمة بقول يابن الهناة، أو الغمزية^(١) لأحد من خاصتك، بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك، فإن ذلك كله مما يقبح ذكره، ويسوء موقع القول فيه، وتحمل

(١) الغمزية: المطعن أو المطعم. في القاموس وهن المرأة فرجها. ويقال للرجل: أقبل يا هن، ولها: با هنة أقبلي.

عليك معايبه، وبنالك شينته، ويتشر عليك سوء النبأ به، فاعرف ذلك متوقياً له، واحذرته مجانبا لسوء عاقبته.

استكثر من فوائد الخير، فإنها تنشر المحمدة وتقبل العثرة، واصبر على كظم الغيظ، فإنه يورث الراحة، ويؤمن الساحة. وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن أحوالهم، واستشارة دفائنهم، حتى تكون منها على رأي عين، ويقين خبرة، فتتبع عديمهم، وتجبر كسيرهم، وتقوم أودهم، وتعلم جاهلهم، وتستصلح حاسدهم؛ فإن ذلك من فعلك يورثك العزة، ويقدمك في الفضل، ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة، ويحرز لك ثواب الآخرة، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك، وقلوبهم المتنجية عنك.

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله، والخمول عند مباهاة النسب، وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك، فاعتمد عليهم من خلاصهم في أمرك، وآثرهم بمجالستك لهم مستحقاً منهم، وإياك وتضييعهم سرفطاً، وإهمالهم مضيعةً.

هنا انتهى الفصل الأول من هذه الرسالة وقد لمحنا فيها ما يهذب النفس، ويعرفها مصادر الأمور ومواردها، ويقفها على أحوال الناس ومعالجة مسائلهم؛ وقد ختمه بقوله: «لهذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً، وجمع لك شواذها مؤلفاً، وأهداها إليك مرشداً، فقف عند أوامرها، وتناه عن بزواجرها، وثبت في مجامعها، وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتتل أنفس الحظوظ، ورغيب الشرف، وأعلى درجات الذكر، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن

الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها، وعافية يملك أكتافها، ونعمة يلهمك شكرها، فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، وبه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، وييده الملك وهو على كل شيء قدير».

في الجزء الأول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبد الحميد أن يلقنها ولي العهد، وما يحاول أن ينزهه عنه خلقه وعاده، ومجالسه ومواقفه، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته، وذوي الحاجات والظلمات منها، وما يجب أن يكون عليه في إدارته وسياسته مع عماله ونصائحه وأصحاب أخباره، حتى يظهر للملأ تام الأدوات، جميل المآني^(١) والصفات. عظيمًا يضم في بُرديه ضروب الوقار وحسن السمات، وجمال العلم والأدب.

أما الجزء الثاني، فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها، فيعمل على نفاذه، لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته؛ وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله، والعمل بمراشده، واجتناب نواهيهِ، ووصف الدواعي إلى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة، فكان أضر على المسلمين من الترك والمشركين، وأوصاه برعاية من يمر بهم الجيش من أهل الذمة وأهل الملة، لئلا ينال الرعية ما ينالها على الأغلب، من كل جيش مرابط ومشاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع. فقال هذا:

«فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركنك الذي ترتجي به منازل الظفر، وتكتهف^(٢) به لمخالق الحذر، تقوى الله عز وجل، مستشعرًا لها بمراقبته،

(١) مآني الأمر ومآناته: جهته.

(٢) اكتهف وتكهف: لزم الكهف، والكهف: المغارة.

والاعتصام بطاعته، متبعًا لأمره، مجتنبًا لسخطه، محتديًا سنته، والتوقي لمعاصيه، في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه، متوكلاً عليه فيما صمدت^(١) له، واثقًا بنصره فيما توتجعت نحوه، متبرئًا من الحَوْل والقوة فيما نالك من ظفر، وتلقاك من عز، راغبًا فيما أهاب^(٢) بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه، محمود الصبر فيه عند الله، من قتال عدو المسلمين، أكلبهم عليهم، وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلًا لعامتهم. وأخذه بربقهم^(٣) وأعلاه عليهم بغيًا، وأظهره فيهم فسقًا وفجورًا، وأشده على فيئهم الذي أصاره الله لهم مؤونة وكلاً، والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله وليًا وناصرًا ومغيثًا وهو القوي العزيز.

ثم خذ من معك من أتباعك وجندك، بكف معرفتهم، ورد مستعلي جورهم^(٤) وإحكام خللهم، وضم منتشر قواصيههم، ولمّ شعث أطرافهم، وتقييدهم عن مروا به من أهل ذمتك وملتك، بحسن السيرة، وعفاف الطعمة، ودعة الوقار وهدي الدعة، وجمام^(٥) المستجم، محكمًا ذلك منهم، متفقدًا لهم فيه تفقدك إياه من نفسك.

ثم اصمد لعدوك المتسمي بالإسلام، الخارج عن جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين، مستحلًا لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبًا عن سنتهم، مفارقًا لشرائعهم، يبغيهم الفوائل، وينصب لهم المكاييد، أضرم حقدًا عليهم، وأرصد عداوة لهم، من الترك وأمم الشرك، وطواغي الملل؛ يدعو إلى المعصية والفرقة، والمروق من الدين إلى

(١) صمد للأمر: قصده معتمدًا عليه.

(٢) أهاب بصاحبه: دعاه.

(٣) الريقة: جبل يوضع في العنق وجمعه ريق، وأكلبهم عليه: أحرصهم وأشدهم.

(٤) في الصبح: ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم.

(٥) الجمام كسحاب: الراحة؛ أي: راحة المستريح.

الفتنة، مخترعاً جهواه للأديان المتحلبة، والبدع المتفرقة، خساراً وتحسيراً، وضلالاً وتضليلاً، بغير هدى من الله ولا بيان، ساء ما كسبت يدها، وما الله بظلام للعبيد، وبئسما سولت له نفسه الأمانة بالسوء، والله من ورائه بالمرصاد، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وقد رأينا بما نقلنا من جملة أنه عاد فأراد على الاعتصام بالمولى، وأدلى إليه بالوسائل إلى استصلاح عدوه من دون إهراق دم فقال له: «اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة، وأحسنه في الأمور موردًا، وأصححه في الرواية حزمًا، وأسلمه عند العامة مصدرًا، ما نيل ببسالة^(١) الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة، ويمن النقية^(٢)، واستنزال طاعة ذوي الصدوف^(٣)؛ بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومنازلة الفرسان في معترك الموت، وإن ساعدتك طلوق^(٤) الظفر، ونالك مزيد السعادة في الشرف؛ ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب! وعضاض السيوف، وألم الجراح، وقصاص الحروب، وسجالها بمغاورة أبطالها، على أنك لا تدري لأي الفريقين يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب في الدولة؛ ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص، فحاول أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك، واشهرهما صيتًا في بدو تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك، وأقواهما شكيمة في حزمك، وأبعدهما من وصم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلهما ثوابًا عند ربك.

(١) في رواية: بسلامة.

(٢) النقية: النفس.

(٣) صدف يصدف صدوفًا: انصرف. ومال.

(٤) الطلوق: الاستبشار وانبساط الوجه.

وابدأ بالإعذار^(١) إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة، وعزّ الأئمة، أخذًا بالحجة عليهم، متقدمًا بالإندار لهم، باسطًا أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعيًا لهم إليه بألن لفظك، وألطف حيلتك، متعطفًا برأفتك عليهم، مترفقًا بهم في دعائك، مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم، وإحاطة الهلكة بهم، منفذًا رسلك إليهم بعد الإنذار، تعدّهم كل رغبة يهش إليها طمعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم، موطنًا نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عندك، قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئتهم إلى الطاعة، مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم، إجابة إلى ما دعوته إليه، وبصرته إياه من حقلك وطاعتك، بفضل المنزلة وإكرام المثوى، وتشريف الجاه؛ وليظهر من أترك عليه، وإحسانك إليه، ما يرغب في مثله الصادف عنك، المصّر على خلافك ومعصيتك، ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة، وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنجى له من العقاب آجلاً، وأحوطه على دينه ومهجته، بدءًا وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم معذراً أو منذراً إن شاء الله.

وهنا وصف له الطريقة التي يجب أن يتخذها لإرسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حالة العدو وإدراك نفسيته، وما يرغب فيه «مستشيرًا لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب»، وأن الواجب أن يعظم أمر عدوه لأكثر مما بلغه، أخذًا بالحزم، لئلا يكون مهين الجند، ولا مفرطاً في الرأي، ولا متلهفاً على إضاعة تدبير. وحذره جواسيسه أنفسهم مما يأتونه به من أخبار عدوه، وأن لا يعاقبهم إذا اتهمهم في خبر حملوه، ملتصمًا لهم الأعذار، ولعلمهم أوتوا من تدبير العدو ومكيدته. وقال:

(١) أعذر: بالغ في العذر؛ أي في كونه معذورا على ما أتاه.

«ألبسهم^(١) جميعًا على الانتصاح، وأرجح لهم المطامع، فإنك لم تستعبدهم بمثلها، وعذهم جزالة الثواب في غير ما استنامة منك إلى ترفيقهم^(٢) أمر عدوك».

«واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيرًا ما يصدقونك ويصدقونه، فلا تبدرن منك فرطة وعقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك، وابسط من آمالهم فيك، من غير أن تُري أحدًا منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له، أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه، أو رددته عليه رد المكذب به، والمتهم له، المستخف بما أتاك منه، فتفسد بذلك نصيحته، وتستدعي غشه، وتجتري عداوته، واحذر أن يُعرف جواسيسك في عسكريك، أو يشار إليهم بالأصابع، وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين شرك، ويكون هو الوجه لهم، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم؛ واعلم أن لعدوك في عسكريك عيونًا راصدة، وجواسيس كامنة، وأن رأيه في مكيدتك مثل ما تكايد به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويُعدُّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه؛ فاحذر أن يُشهر رجل من جواسيسك في عسكريك فيبلغ ذلك عدوك، ويعرف موضعه فيعد له المرصد، ويحتال له بالمكايد، فإن ظفر به فأظهر عقوبته، كَسَرَ ذلك ثقات عيونك، وخذهم عن تطلب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعذاب اجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا إلى أخذها على عرض^(٣) من غير الثقة ولا المعاينة، لقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المرجفة، واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضًا، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، وممالاتهم عدوك، واجتماعهم على

(١) خالطهم، والتنصح: التشبه بالنصحاء.

(٢) الترفيق ضد التغليظ.

(٣) العرض بضم العين: الناحية، ومن الكلام فحواه.

غشك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم^(١) على خيانتك، وأن يورط بعضهم بعضًا عند عدوك؛ فأحكم أمرهم، فإنهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك، وعليهم مدار حربك، وهو أول ظفرك».

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته، وأن يكون أوثق قواده عنده، وآمنهم نصيحة، وأقدمهم بصيرة في طاعته، وأصدقهم عفافاً؛ وأن يبسط من أمله مظهرًا عنه الرضا، حامدًا منه الابتلاء. ويُنَّ له عمله في الجيش وسلطته على الناس. وقال له أن يولي القضاء في عسكره رجلًا من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن، وأيدته التجربة، ويكون ممن لا يداهن في القضاء وممن يعدل، وأن يُجري عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه، ليتفرغ لما حمله، ويعان على ما ولي؛ وأشار له أن يتخب لطلائعه ذوي نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب، وشربوا مرار كثوسها، وأن ينتقيهم على عينه، ويعرض كُراعهم^(٢) بنفسه، ويُنَّ له ما يصلح من الخيل والسلاح، ووصف ذلك أبداع وصف، وحذره أن يكلَّ مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانه وكتابه؛ لثلا يضيع مواضع الحزم، ويقف دون عزم الروية، لأنهم حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول مكيدته، وعروة أمره، وزمام حربه؛ وأن يتخب للولاية عليهم رجلًا بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، له في العدو وقعات وصولات، وأن يجري عليهم وعليه أرزاقًا تسعهم، وتمد من أطعاهم، سوى أرزاقهم في العامة. وبعد هذا قال له أن يولي دراجة^(٣) عسكره، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم، رجلًا من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروفًا بالنجدة، ذا سن وتجربة؛ وأن يضم إليه عدة نفر من

(١) اجتماعهم.

(٢) كراعهم: حيلهم.

(٣) الدراجة: كجبانة الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال.

ثقات جنده، وذوي أسنانهم يكونون شرطة معه؛ ثم تتقدم إليه في إخراج المصاف، وإقامة الأحراس، وإذكاء العيون؛ وذكر له عمل هذا الرجل في الأخذ بالنافع لقيام أمر الجيش، ووقايته من العدو.

وأراده أن يفوض إلى أمراء أجناده وقواد خيله أمور أصحابهم، رياضة منه لهم على السمع والطاعة لأمرائهم؛ وحذره أن يعتل أحد من قواده عليه، بما يحول بينه وبين تأديب جنده، لأن ذلك مفسدة للجنود؛ وحذره استخفاف الجنود بقوادهم، لأن ذلك يؤدي إلى استخفافهم بأمره؛ وأن يوعز إلى قواده أن لا يقدموا على عقوبة أحد إلا عقوبة تأديب؛ أما عقوبة القتل أو إقامة حد في قطع أو إفراط في ضرب أو أخذ مال فلا يلي ذلك إلا هو، أو صاحب شرطته بأمره، وعن رأيه وإذنه.

ثم بسط له القول عند لقاء العدو إذا شام ثلاثه كيف يكتب خيوله ويعبي جنده، ويسير في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة، شاهرين الأسلحة، ناشرين البنود والأعلام، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم، معرفًا كل قائد أصحابه مواقفهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والظليعة، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو؛ فإن ضلت دابة من موضعها عرف أهل العسكر من أي المراكز هي ومن صاحبها، وفي أي المحل حلولة منها فردت إليه؛ وأراده على أن يجعل على ساقته أوثق أهل عسكره صرامة ونفاذاً، ورضا في العامة، وإنصافاً من نفسه للرعية؛ وأن يجعل خلف ساقته رجلاً من وجوه قواده جليداً ماضياً عفيفاً صارماً، شهيم الرأي، شديد الحذر، غير مداهن في عقوبة، في خمسين فارساً من خيله، يحشر إليه جنده، ويلحق به من يتخلف عنه؛ وأمره أن يعد العقوبة الموجهة، ويستصفي الأموال، ويهدم غقار كل من آوى أحدًا من الجنود، أو ستر موضعه، أو أخفى محله، ثم قال:

اليكن رحيلك إيابًا واحدًا، ووقتًا معلومًا، نتخف المؤونة بذلك على جندك، ويعلموا أو ان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم، وتكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويظمنن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل؛ ومتى يكون رحيلك مختلفًا، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك، ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم، حتى لا يتتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلالًا، أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك؛ أخذًا بجنبني فُوّهته بأسلحتهم، عدة لأمر إن حضر، أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منكم نهزة، أو لمحت عندكم غرة، ثم مر الناس بالرحيل، وخيلك واقفة، وأهبتك معدة، وجُتكت واقية، حتى إذا استقللت^(١) من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح، وهدوّ جملة، وحسن دعة؛ فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله، أو هممت بالمعسكر به، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله، والمعرفة بمرافقه، ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستشير لك علم دفينه، ويستبطن علم أموره، ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه، لتعلم كيف احتماله لعسكرك، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه؛ وهل لك إن أردت مقامًا به، أو مطاولة عدوك، أو مكايده فيه، قوة تحملك ومدد يأتيه، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه، وقلة مياهه، وانقطاع مواده، إن أردت بعدوك مكيدة، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة، فإن ارتحلت منه كنت عَرَضًا لعدوك، ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلًا، وإن أقمت به أقمت على مشقة

(١) استقل القوم: ذهبوا وارتحلوا، والجنة بالضم: كل ما وفى.

وحصر، وفي أزل^(١) وضيق، فاعرف ذلك وتقدم فيه؛ فإن أردت نزولاً أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس، فوقفت خيله متنجية من معسكرك، عدةً لأمر إن غالك، ومفزعاً لبديهة إن راعتك، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك، وعرفت موقعها من حركك، حتى يأخذ الناس منازلهم، وتوضع الأثقال مواضعها، ويأتيك خبر طلائعك، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودبابات محيطين بعسكرك، وعدة إن احتجت إليها؛ ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم، في كل يوم وليلة نُوباً بينهم، فإذا غربت الشمس، ووجب^(٢) نورها، أخرج إليهم صاحب تعييتك أبداهم، عسّاً بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار، يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان».

وعلى هذا النحو وضع لولي العهد مخطط الحركات الحربية، ثم قال له أن يكون منزله في خندق أو حصن ليأمن فيه بيات عدوه؛ وأن يقطع لكل قائد ذرعاً معلوماً من الأرض بقدر أصحابه، فيحفروه عليهم خندقاً يطيفون به بعد ذلك بخنادق الحسك؛ أي الأسلاك الشائكة، وإذا طرقتهم طارق، أو فاجأهم عدو أن لا يتكلم أحد رافعاً صوته بالتكبير، وليشرعوا رماحهم ناشيين بها في وجوههم، ويرشقونهم بالنبل مكتئين بأترستهم، لازمين لمراكزهم، وأن يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، ليعرف مواضع عدوه من معسكره، وأن لا يشهروا سيفاً يتجالدون به، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب «قد ألدوا بالأترسة، واستجنوا بالبيض، وأتموا عليهم سوابغ الدروع وجباب^(٣) الحشو»؛ وأراده على ألا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره، وأن عدوه إذا نكل عن الإصابة في جنده، فعليه

(١) الأزل: ضيق في العيش.

(٢) وجبت الشمس: غابت.

(٣) الجباب: الدروع.

أن يتبعه جريدة خيل، عليها الثقات من فرسانه؛ وتقدم إليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات أن يكونوا عليها وهم يطاردون أعداءهم، والصفات التي يجب على فرسانه أن يتصفوا بها ليغنوا غنائهم؛ ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم، وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصته وثقائه ونصائح «له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المتابعة، ويتعهدهم ودواهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشهير وسرعة الإجابة عند الطلب». وقال له أن يوكل بخزائنه ودواوينه رجلاً ناصحاً أميناً، ويجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنه وحولها، ويكون عامة الجند والجيش متحنين عنها لئلا تحدث فرقة، فيتهدب الجند أنفسهم الخزانة.

وبعد أن نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء مُزَيِّناً للقائد أن يعتمد إلى الخيل أولاً لا إلى القتال، وأن يدس إلى عدوه، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم، ويعدهم ويمنيهم، ويقطع أعناقهم بالمطامع. وقال له: ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم إليك، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم، وتحمل بها صاحبهم عليهم، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة، فلعل مكيدتك في ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم. وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة، وأن لا يظهر الجند تكبيراً إلا في الكرات والحملات؛ أما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن، وأن يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها، ونعيم أهلها وسكانها.

وكتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أمية من الشرق بثلاث سنين. وقد عرفنا به أموراً كثيرة من شئون تلك الأيام، ونمط حروبها

وغاراتها، والأخلاق الغالبة على أهلها، ما لا تعرف بعضه بالرجوع إلى الكتب المطولة، والأحاديث المنشرة؛ ودل بها عبد الحميد أنه رجل الدولة الأموية، ممن قد ينبغ مثلهم أواخر الدول، فيكونون لها سراجًا وهاجًا، وتطفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها.

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات من كلام إمام المنشئين نفسيته وعقله، بما لا تنهض بتعريفه التراجم المطولة التي يكتبها أصحابها، فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم. وبعض التراجم إذا أزلت منها جملاً معينة تليق أن تلبس على جسم أكثر الناس وروحهم، وترجمة المرء من كلامه أفعال أثرًا وأصدق فيلاً.

والرسالة الثانية لعبد الحميد هي رسالته إلى الكتاب، وقد تعد من مطولاته، قال الجهشيارى: وجدت بخط ميمون بن هارون لعبد الحميد كتابًا إلى الكتاب أطال فيه، إلا أنه أجاد فلم أستجز إسقاط بعضه، وكتبته جميعه على طوله لأن الكاتب لا يستغني عن مثله وهو:

«أما بعد؛ حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله جل وعز جعل الناس من بعد الأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- ومن بعد الملوك المكرمين سُوَقًا^(١)، وصرّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرفها صناعة: أهل الأدب والمروءة والحلم والتروية، وذوي الأخطار والهمم، وسعة الذرع في الإنضال والصلوة، بكم يتنظم الملك، وتستقيم للملوك أمورهم، وتبديركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم، ويجمع فيهم، وتعمر بلادهم؛ يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر

(١) السوقة: خلاف الملك.

السنِّي والديني من ولايته، لا يستغني عنكم منهم أحد، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم منهم موقع أسماهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون؛ أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلتها، وصارت إلى محاصلها، ثقافتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصائحهم، فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم.

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتَّاب، إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، إلى أن يكون حليماً في موضع الحلم، فقيهاً في موضع الحلم، مقداماً في موضع الإقدام، ومحجماً في موضع الإحجام، ليناً في موضع اللين، شديداً في موضع الشدة، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيماً عند الشدائد، عالماً بما يأتي وما يذر، ويضع الأمور في مواضعها، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه شداً^(١) منه شدواً يكتفي به، يكاد يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته، ويهيئ لكل أمر أهبته؛ فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها تُقف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم، ولا يضعفن نظركم في الحساب، فإنه قوام كتَّاب الخراج منكم، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها، ومساوي الأمور ومحارها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتَّاب؛ ونزهوا صناعتكم،

(١) شداً من العلم والأدب: أخذ طرفاً منها.

واربثوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة، وما فيه أهل الدناءة والجهالة، وإياكم والكبر والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة بغير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصلوا عليها، فإنها شيم أهل الفضل والنبيل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه حتي ترجع إليه حاله، وإن أقعد الكبرُّ أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته، وقديم معرفته؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحذب وأحوط منه على أخيه وولده، فإن عرضت في العمل محمداً فليضفها إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه، وليحذر السقطة والزلة، والملال عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى المرأة، وهو لكم أشد منه لها، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل إذا صحبه في بدء أمره من وفائه وشكره، واحتيماله وصبره ونصيحته، وكتمان سره وعفافه وتدييره، بما هو حريٌّ أن يحققه بفعاله، في غير حين الحاجة إلى ذلك منه، فابذلوا - وفقكم الله - ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة، والإحسان والإساءة، والغضب والرضا، والسراء والضراء، فنعمت السمّة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا ولي الرجل منكم، وصيّر إليه من أمور خلق الله وعباده أمرٌ، فليراقب الله - تعالى ذكره - وليؤثر طاعته فيه، وليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عباد الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعباده، ثم ليكن بالحق حاكماً، وللأشراف مكرماً ومدارياً، وللنبي موفراً، وللبلاد عامراً، وللرعية متألماً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ليناً، وفي استجلاب خواجه واستقصاء حقوقه رفيقاً.

وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلائقه، كما يستشف الثوب يشتره لنفسه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بالطف حيلة، وأحسن مداراة ورفق، فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً اتقاها من رجلها، وإن كانت جموحاً لم يهجمها إذا ركبها، وإذا كانت شموساً توقاها من ناحية يدها، وإن خاف منها عِضاضاً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً لم يلاحها^(١) وتتبع هواها في طريقها، وإن استمرت عطفها فيسلس لها قيادها. ومن هذا الوصف من سائس البهيمة، ورفق سياسته، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم، وخدمهم وصحبهم.

والكاتب بفضل رأيه، وشرف صناعته، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يجاوره وينظره، ويفهم عنه ويخاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً، ولا تعرف خطأ ولا صواباً، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها، وصاحبها الراكب لها؛ فأدقوا -يرحمكم الله- النظر، وأعملوا فيه الروية والفكر، تأمنوا ممن صحبتموه -ياذن الله- النبوة، والاستئصال والجفوة، ويصيروا منكم إلى الموافقة، وتصيروا منهم إلى المواساة والشفقة إن شاء الله.

ولا يُجوزنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه، وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره -قدر صناعته؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير، وخزان وحفظة لا يُحتمل منكم التضييع والتبذير؛ واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عدت عليكم، فنعم العون عونكم على صيانة دينكم، وحفظ أمانتكم، وصلاح معاشكم؛

(١) لاحتية ملاحاة ولحاء: إذا نازعته.

واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنها يعقبان الفقر، ويدلان الرقاب، ويفضحان أهلها، ولا سيما الكُتَّاب.

وللأمور أشباه، وبعضها دليل على بعض؛ فاستدلوا في مؤتف أعمالكم، بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأرجحها حجة، وأحدها عافية. واعلموا أن للتدبير آفة وضدًا^(١) لا يجتمعان في أحد أبدًا، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على إنفاذ عمله ورويته؛ فليقصد الرجل منكم في مجلس تديره، قصد الكافي في منطقته، وليقصد في كلامه، وليوجز في ابتدائه، وليأخذ بمجامع حججه حجته، فإن ذلك مصلحة لعقله، ومجمة لذهنه، ومدفعة للتشاغل من إكثاره، وإن لم يكن الإكثار عادة، ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس، ولا يدعون الرجل منكم صنعُ الله -تعالى ذكره- له في أمره، وتأييده إياه بتوقيفه، إلى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان، أو قال قائل، إن ذلك الصنع لفضل حيلته، وأصالة رأيه، وحسن تديره، كان معترضًا لأن يكله الله إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف. ولا يقل أحد منكم إنه أدب وأعقل، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب، القائل: إن صاحبه أعقل منه، وأحقهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه، لعجب هذا بنفسه، ونبذ ذلك العجب وراء ظهره، إذ كان الآفة العظمى من آفات عقله؛ ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه، من غير عجب برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر على أخيه وكفته، ويشكر الله ويمجده بالتواضع لعظمته.

(١) كذا وفي رواية: (واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل) إلخ.

وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل: (من يلزم الصحة يلزمه العمل)، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخره وختمته به؛ تولانا الله وإياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله».

وبهذا الكتاب أيضًا عرفنا منازع عبد الحميد وأدبه؛ وأنه يريد أن يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس، وتفيد الآخرين أنفسهم بأدبها، وأن الكتابة تحتاج إلى أدوات كثيرة، ذكرها مفصلة؛ ولا بد بعد الاضطلاع بأعباء ما يلزم لها من العلوم أن يلم الكاتب بكل موضوع ولو إلمامًا خفيفًا؛ ومن أحلى ما في رسالته أن يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة، ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم. فلا عجب بعد هذا أن كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة، ما زال الناس يأخذون منها في العصور التي تلتها، وقلما حادوا عنها لأنها مقبولة صدرت عن عقل عظيم نجذته التجارب، وأيده العلم والأدب.

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الأول من القرن الثاني هذا الإنشاء العربي حلة جديدة، فيها المتانة وفيها الرشاقة، وأكثر ما بدا في تضاعيفها الإطالة في غير ما إملال من سجع وترصيع، إنشاء يسير مع الطبع، ومع الطباع التي توائم أهل الحضارة، ممن يفصلون ويتوسعون، ويعيدون ويبدون، ومقاصدهم تحوم حول التأثير في أذهان السامعين والقارئین، وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة؛ ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة - فيما بلغنا - مألوفة في عامة دور الأمويين، لأن هؤلاء عرب أقحاح، وكتّابهم على شاكلتهم، يحاولون بالإيجاز في مكتوباتهم، أن يتركوا للقارئ شيئًا من المعاني يفسرها بما يريد ويمتعوه بشيء من الحرية، ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة، فيكون لديه المختصرات، والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها.

اقتبس عبد الحميد هذه الطريقة من الأمم المجاورة وخاصة الفرس، ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب، بل فيها المطول المسهب، والمتشعب المتعب. ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك إلى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لبس ولا إشكال، ومن مواجب الحضارة الإسهاب، ومن دواعي البداوة الاقتضاب؛ فعبد الحميد إذًا تشبع بروح الدولة وروح حضارتها التي بلغت في أيامه أعلى قممها، ورسم ببراعته صورة ما أحاط به واقتضاه الحال؛ ولو حاول -وقد بلغت الأمة ما بلغته من درجات التقدم في كل شأن من شئون المجتمع- أن يعود بالكتابة إلى إيجازها القديم، لما أفاد جديدًا، ولما رجع ذاك الصدى في سلطان دولته، ولما وصف محيطه حق وصفه. ومن الصعب أن يتعدى المرء حدود البيئة، ولا عليه فيما أتاه ما دامت حال الدولة تتطلب التوسع في الخطأ إلى الأمام، وأن تجدد أوضاعها على ما توجهه الحال، وطبيعة الملك والحضارة، على أن لا يهدم في عمله أصلًا من الأصول القديمة؛ وفي هذا كان جماع المكانة التي بلغها عبد الحميد بإنشائه، فهو مخترع طريقة، وكاتب وصاف على الحقيقة، استجمع شروط البلاغة، فعد أمير المنشئين غير مدافع، واستطاب الناس إلى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب، وأين من يشاكله فيه، أو تسمو قريحته إلى مستواه في فنون الكتابة، وحسن التصرف على ما يشاء؟